شهريات

بقلم رئيس التحرير

« جبهة الدفاع عن حرية التعبير » ...

في الشهر الماضي ، طرح « السفير الثقافي » موضوع « الاتحاد العام للادباء العرب » وما اداه ، أو لم يؤده ، للثقافة العربية المعاصرة ، وذلك بمناسبة انعقاد المؤتمر الثاني عشر للادباء العرب في دمشق .

وبصفتي احد الذين تابعوا نشاط هذا الاتحاد منذ انشائه ، وشارك في أعمال مؤتمراته جميعا ، اما كأمين عام مساعد للادباء العرب أو كرئيس لوفد اتحاد الكتاب اللبنانيين حتى المؤتمر العاشر لاتحاد الادباء العرب ، أحب ان ادلي برأيي في الموضوع المثار ، بكل هدوء وموضوعية.

لقد أشرت أكثر من مرة في كلمة الوفد اللبناني الى تلك المؤتمرات ، الى ان الاتحاد العام لا يستطيع أن يتخذ لنفسه أكثر من أهداف قليلة محدودة يسعى الى تحقيقها بالوسائل الضئيلة التي يملك ، والتي كانت تحمله دائما على ان يقدم « توصيات » ، مبتعدا عن تقديم « القرارات » ...

واذ يثار اليوم مجددا موضوع الاتحاد العام ، وما يستطيع ان يقدم ، واذ توجه التهم الى أمينه العام بالعجز أو التقصير ، فرأيي أننا نرتكب خطأ شنيعا اذا اعتقدنا ان هذا الاتحاد يستطيع ان يأتي بأكثر مما أتى به سابقا في مؤتمراته الاحد عشر ، وما سيأتي به مؤتمره الثاني عشر الحالي ...

لا يستطيع اتحاد الادباء العرب ان يوفر أكثر من التقاء الادباء ، وتعارف من لم يتعارف منهم ، وتداولهم في الشأن العام والشأن الخاص ، وتبادل الشكوى أحيانا أخرى ...

ولا يستطيع الاتحاد ان يقوم بأكثر من تقديم ابحاث ودراسات كلاسيكية ذات موضوعات مقيدة ، موضوعات هادئة غير شائكة ، موضوعات لا تثير حساسية أحد ، ولا تحدث اي احراج لاي انسان !

ذلك ان الاتحاد ، شأنه في ذلك شأن اية مؤسسة تابعة للدولة ، يتكون من اتحادات محلية مرتبطة بنظام الدولة ، وكل اتحاد ، بالتالي ، مرتهن لتوجهات الدولة على الصعيد الثقافي . بل ان كل وفد يتكون مبدئيا من الاعضاء الاكثر ولاء للنظام وارتباطا به !

في كل مؤتمر من مؤتمرات الادباء العرب ، كان كل وفد يأتي مزودا بـ « التوجيهات » العامة ، ان لم يكن بـ « التعليمات » الدقيقة ! واذا اتفق ان يتحالف نظامان أو أكثر، ولو تحالفا مؤقتا، فلا بد أن ينعكس هذا التحالف تنسيقا كاملا بين وفدي الادباء التابعين لهذين النظامين ، حتى ولو كان هذان النظامان ، في ظروف اخرى ، يناصب احدهما العداء ... واحسب أن الامر كان يظل كذلك لو حدث وانعقد « مؤتمر قمة » للادباء العرب !

واذن ، فلم يكن ثمة سبيل لان تنتج مؤتمرات الادباء العرب ، في ظل الاتحاد العام ، أكثر مما أنتجت ...

ومع ذلك ، فقد كان الوهم يأخذنا أحيانا ، فنحسب أن بوسعنا أن نأخذ من الاتحاد والمؤتمرات ما كنا نحتاج اليه حاجة ماسة عميقة : الدفاع عن حريتنا في التعبير.

في جميع المؤتمرات التي شاركت فيها ، قبل انشاء اتحاد الكتّاب اللبنانيين وبعده ، كنت أبدا أدعو وأطالب بالحرية الفكرية . حتى في المؤتمر الاول للادباء العرب الذي انعقد في مصيف بيت مري في لبنان صيف ١٩٥٤ ، القيت كلمة قصرتها على موضوع حرية الفكر « الذي هو أخطر موضوع نواجهه » مشيرا الى الارهاب الفكري الذي كان قائما آنذاك في العراق ، داعيا الادباء الى توحيد جهودهم للدفاع عن الحرية الفكرية « التي هي حظهم الاول وقوام حياتهم الفكرية » (الآداب ، العدد ١٠ سنة ١٩٥٤) .

وفي صيف ١٩٥٧ جرت محاولات لاضطهاد الفكر والمفكرين في لبنان ، فأصدر أدباء لبنان مذكرتي احتجاج بعثوا بهما الى السلطة اللبنانية ، وكنت من الذين وقعوهما دفاعا عن حرية الفكر (الآداب ، العدد التاسع والعدد الثاني عشر ١٩٥٧) .

وفي مؤتمر الادباء العرب الخامس الذي عقد في بغداد عام ١٩٦٥ ، أثرت موضوع عدد من الادباء والمثقفين العراقيين الموجودين خارج العراق ، كان اسقاط الجنسية العراقية عنهم يحول دون عودتهم الى وطنهم ... وقد طالبت الحكومة العراقية بالغاء ذلك القرار اللاانساني والسماح لاولئك المفكرين والمثقفين العراقيين بالعودة الى الوطن (الآداب العدد العاشر سنة ١٩٦٦) . وقد الغي القرار بعد ذلك فعلا .

ويطول الاستشهاد لو أردت ايراد جميع المواقف التي وقفناها ، باسم اتحاد الكتاب اللبنانيين غالب الاحيان ، في مؤتمرات القاهرة ١٩٦٨ وبغداد ١٩٦٩ ودمشق ١٩٧١ .. ولكن المثقفين والادباء العرب لن

ينسوا موقف وفدنا في المؤتمر التاسع للادباء العرب الذي عقد في تونس ، في شهر آذار عام ١٩٧٣ .

لقد خضنا في تونس معركة من أقسى المعارك دفاعا عن حرية الفكر والتعبير . وقد جاء في كلمة الافتتاح التي ألقيتها باسم الوفد اللبناني « ان الادباء العرب ظلوا طوال الاعوام العشرين التي انقضت ، منذ انعقاد المؤتمر الاول للادباء في لبنان ، يضطهدون في حريتهم ويخضعون لشتى ألوان الارهاب والقمع » واضفت « ان الامانة تقتضينا ان نعترف بأن مؤتمرات الادباء العرب قصّرت تقصيرا فادحا في تطبيق أهم هدف من أهداف الاتحاد العام للادباء العرب ، وهو الذي تنص عليه المادتان العاشرة والحادية عشرة من اهداف الاتحاد في نظامه الاساسي حين تقرران الدعوة الى « العمل على رعاية الاديب وحماية حقه في حياة حرة كريمة ، والعمل على حماية حق الاديب في حرية التعبير في نطاق المثل القومية العربية والانسانية . »

كنا نريد ، في تونس ، ان نضع المؤتمر واتحاد الادباء العام عند مسؤوليتهما، ونحملهما على اتخاذ موقف يؤدي حقا الى حماية حرية الاديب ورفع قمع السلطات عنه ... اجل ، كنا نأمل أن يستطيع المؤتمر اتخاذ موقف واضح مسؤول في قضية حرية التعبير ... ولكننا كنا طوبائيين وواهمين ، لان مقترحاتنا ــ على اعتدالها وتواضعها ــ سقطت في التصويت حين عرضت على اجتماع رؤساء الوفود ، وحين اردنا طرح القضية على المؤتمر العام ، رفض رئيس المؤتمر الاستاذ محمد المزالي ، والامين العام للاتحاد (يوسف السباعي) السماح لنا بالكلام فانسحب الوفد اللبناني من المؤتمر ، وانسحب معنا خمسة ادباء من تونس والمغرب والبحرين ...

ويعرف المثقفون العرب أن اتحاد الكتاب اللبنانيين اعلن بعدذلك انسحابه من الاتحاد العام للادباء العرب بكل هيئاته ، ونشر بيانا أكد فيه ان الاتحاد العام للادباء العرب «يكرس نفسه نهائيا مؤسسة رسمية تابعة للحكومات العربية ويجعل اعضاءه مرتبطين حكما بالسلطة ، بل هو جعل من نفسه عميلا للسلطة في وجه الاديب ، يساعدها على قمعه وارهابه ... وان مؤتمرات ادباء العرب اصبحت في شكل نهائي مجمعا للراغبين في السياحة والنزهات والاستمتاع بالضيافة العربية والكرم الحاتمي » .

بل لقد بلغت بنا الصراحة في ذلك البيان ان اكدنا « أن كثيرا من الوفود ، بحكم انها وفود رسمية تابعة للحكومات العربية ، تضم بين أعضائها عناصر مخابرات مهمتها وضع التقارير عن نشاط الوفد الذي تنتمي اليه لمزيد من الارهاب والضغط ! »

وحدث بعد ذلك ، وبالحاح من اتحاد الكتاب الجزائريين ، ان رفضت الامانة العامة للاتحاد استقالة اتحادنا ، ورفضها كذلك المكتب الدائم ، فلم يجد اتحادنا بدا من العودة عن استقالته استجابة لرغبة الاتحادات الاخرى ، مشترطا تكوين لجنة خاصة تسمى « لجنة حرية التعبير » تكون مهمتها الاساسية المبادرة الفورية للدفاع عن حق أي أديب عربي تتعرض حريته في التعبير لاي اذى أو ضيم .

وقد أقر مؤتمر الادباء العاشر في الجزائر اقتراحنا بتأليف لجنة دائمة للدفاع عن حرية التعبير .

لقد سردت هذه التفاصيل كلها لاطرح السؤال التالي:

ــ ما هو وضع الاديب العربي الان ؟ وهل ضمنت لجنة الدفاع عن حرية التعبير حرية تعبيره ؟ وهل زال القمع والارهاب ؟

ان الذي نعيشه ونشاهده ان السلطات والانظمة ماضية الى مزيد من قمع الفكر والمفكرين والادب والادباء، وان الاتحاد العام للادباء العرب اعجز من أن يمارس أي تأثير ، اذا حاول حتما أن يمارس هذا التأثير ، بسبب من تكوينه بالذات ، كما ان اتحادات الادباء العرب عاجزة، للسبب نفسه ، عن اي عمل .

من أجل ذلك ، نطرح اليوم ، اقتراحا ينص على تكوين « جبهة الدفاع عن حرية التعبير » ، داعين المثقفين والمفكرين والادباء ، بصفتهم الشخصية والفردية، للانتساب اليها والعمل في اطارها ، بعيدا عن كل اتحاد رسمي للادباء ، ليتاح لهم ان يتحركوا بمطلق الحرية والاختيار .

ونحن نطرح صيغة اولى « لميثاق شرف » لهذه الجبهة يلتزم به كل أديب يوقع عليه بالنص التالي :

« يتعهد أعضاء جبهة الدفاع عن حرية التعبير بأن يبادروا الى شجب كل محاولة ، في أي بلد عربي ، تستهدف قمع الفكر أو ارهاب الادباء أو التضييق على حرياتهم ، كما يتعهدون ببذل كل المساعي واتخاذ جميع الخطوات الضرورية للدفاع عن حرية المفكرين والادباء العرب » .

وسندعو قريبا الى اجتماع عام لتدارس هذه الفكرة وانتخاب لجنة تضع نظاما للجبهة للشروع في ممارسة نشاطها .

* * *

وبعد ، فان « الاتحاد العام للادباء العرب » لا يستطيع ان يقدم اكثر مما يفعل في المؤتمرات وخارجها..

ولكن المثقف يستطيع ان يفعل كل شيء .

واذا كان من حقنا ان ندعي ان السلطة في البلاد العربية تحول دون أن يتمتع المفكر بحرية التعبير ، فمن واجبنا ان نعترف بأنهم قلة نادرة أولئك المفكرين والادباء الذين ناضلوا دفاعا عن حرية الفكر او قاموا بتضحية من اجل المحافظة على حقهم في تلك الحرية !

سهيل ادريس